حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به - العدد الاول - شهر رمضان - ١٤٣٢هـ / آيار - ٢٠١١م

١

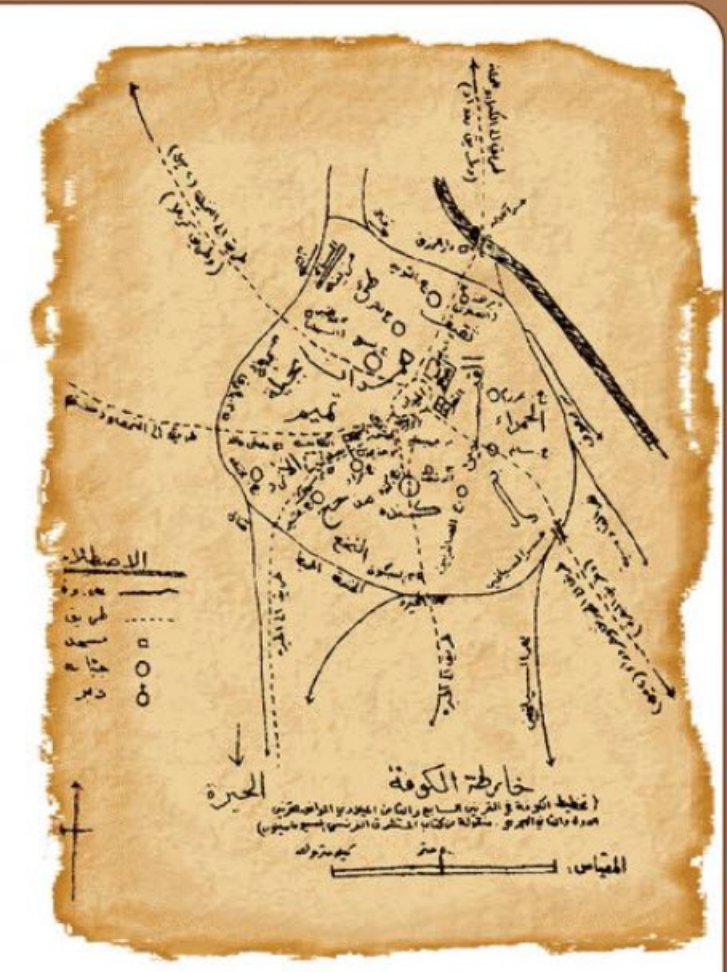

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

الكوفة الغراء

أرض الرسالات السماوية وعاصمة الخلافة الإسلامية

الأستاذ الأول المتمرس الدكتور محمد حسين علي

أستاذ الدراسات العليا- جامعة الكوفة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا بحث أحسبه جديداً في العرض والاكتشاف والنتائج، يُعنى بتأصيل حاضرة الكوفة باعتبارها مركز الإشعاع الإنساني الأول، ويستظهر تأريخها القديم رسالياً وحضارياً وقومياً، ويستقرئ بصماتها في وضع الأركان الأساسية للتراث العالمي المجهول، نخلص من ورائه إلى قراءة معاصرة للبشرية وتتابع الأجيال، ونذهب فيه مذهب البحث الموضوعي في استكناه الحقائق، آملين التوفيق باستيحاء العظة والعبرة، اعتداداً بالماضي المجيد، وتطلعاً للمستقبل المشرق، لا نغالي في القول، ولا نبالغ في الاستذكار، بل هي الطريقة المثلى التي تقود إلى استلهام القيم والأفكار والفضائل في ظلال من القرآن الكريم، وفي استخلاص للتأريخ الشريف دون تزيد أو إضافة.

وهذا كله لا ينافي أن نأنس بأمجاد الكوفة أصلاً وعراقةً وكرامةً، فالكوفة إحدى المدن الأربع: مكة، المدينة، القدس، الكوفة. التي اختارها الله تكريماً لها دون أرضه الواسعة.

في الحديث: «أن الكوفة حرم الله وحرم رسوله ﷺ وحرم أمير المؤمنين عليه السلام».

ومسجدها الكبير قد صلى فيه ألف نبي، وألف وصي نبي كما في الأثر.

وهو أحد المساجد الأربعة: بيت الله الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، ومسجد الكوفة.

ويستفاد من بعض الروايات: فضل مسجد الكوفة على المسجد الأقصى في بيت المقدس.

وروى مشايخ الحديث عن هارون بن خارجة، قال: قال أبو عبد الله الصادق صلوات الله عليه من حديث «... ما من نبي ولا عبد صالح إلا وقد صلى في مسجد الكوفة. حتى أن رسول الله ﷺ لما أسري به إلى السماء، قال له جبرائيل: أتدري أين أنت يا محمد؟ أنت الساعة مقابل مسجد كوفان، قال: فاستأذن ربي حتى آتيه فأصلي فيه ركعتين، فنزل فصلى فيه»[1].

وفي وسط المسجد اليوم، مقام النبي محمد ﷺ ويدعى هذا المقام بدكة المعراج، ووجه تسميته بذلك -فيما يبدو- ما تقدم.

ولك أن تقول أن الكوفة ومسجدها قد اختطهما سعد بن أبي وقاص بعد معركة القادسية لتكون معقلاً للجيش الإسلامي، فكيف اهتدى سعد لهذه البقعة؟ وهذا الإيراد صحيح لا غبار عليه، ولكننا لو دققنا النظر في ما وراء التأريخ، لرأينا أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أرسل سعداً قائداً للجيش، ومعه مستشاران:

أولهما: حذيفة بن اليمان، صاحب سرّ رسول الله ﷺ الذي أسرّ إليه بأسماء المنافقين، وشخّص له أعيانهم، وهو الوالي على المدائن فيما بعد القادسية من قبل عمر نفسه.

وثانيهما: سلمان المحمدي الذي قال فيه رسول الله ﷺ: (سلمان منا أهل البيت) و(ولا تقولوا سلمان الفارسي وقولوا سلمان المحمدي) وقد روي أن النبي ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام (قد علماه من علم الله المخزون المكنون ما لا يطيق حمله سواه)[2].

وحينما أراد سعد تعيين موضع مسجد الكوفة، أشار عليه كلّ من حذيفة وسلمان، بهذا الموقع بالذات، وقرب هذين الصحابيين الجليلين من رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين معروف، فما يدرينا أن يكون ذلك بعلمهما، وبتوجيه أو أمر منهما، ويؤيده أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام قد اختار الكوفة من بين حواضر العراق عاصمة للخلافة الإسلامية، واتخذ مسجدها قاعدة لحكمه وبالضبط في الثاني عشر من رجب سنة ست وثلاثين من الهجرة النبوية الموافق للرابع من كانون الثاني عام ٦٥٨ميلادية، وهو التأريخ الذي تبركت به جامعة الكوفة الموقرة، وبإشارة مني، فجعلته يومها المتجدد في كل عام، فكان ذلك مدعاة إعجاب وتقدير.

---

(١) ظ: الكافي والمفاتيح/ ٨٣٦ وانظر مصادره.

(٢) المفاتيح/ ٤٩٢ وانظر مصادره.

(١) الكوفة آثارياً قبل الإسلام:

تشير الروايات التأريخية المقطوع بصحة سندها ومتنها أن آدم ونوحاً عليهما السلام قد دفنا في البقعة المباركة التي دفن فيها الإمام علي عليه السلام في ظهر الكوفة، وهي النجف الأشرف[١]. ففي زيارة الإمام الأولى، وقد رواها الإثبات من العلماء منهم:

١- محمد بن محمد بن النعمان، العكبري البغدادي المعروف بالشيخ المفيد (ت٤١٣هـ) في الأمالي.

٢- رضي الدين، علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت٦٦٤هـ) في مصباح الزائر.

٣- غياث الدين، عبد الكريم بن أحمد بن طاووس (ت٦٩٣هـ) في عمدة الزائر وفرحة الغري.

٤- أبو عبد الله، محمد بن مكي الدمشقي العاملي الجزيني، المعروف بالشهيد الأول (ت٧٨٦هـ) في كتابه المزار، وسواهم لاسيما بحار الأنوار في مواضيع عديدة، وقد وردت العبارة الآتية: (السلام عليك يا مولاي وعلى ضجيعيك آدم ونوح ورحمة الله وبركاته).

وفيها: ثم عد إلى جانب رأس أمير المؤمنين لزيارة آدم ونوح عليهما السلام، وقل في زيارة آدم: (السلام عليك يا صفي الله... السلام عليك يا خليفة الله في أرضه، السلام عليك يا أبا البشر، السلام عليك وعلى روحك وبدنك). فبدنه إذن في البقعة الطاهرة من النجف، وقد خص بالسلام.

وفيها: وقل في زيارة نوح عليه السلام: (السلام عليك يا شيخ المرسلين، صلوات الله وسلامه عليك وعلى روحك وبدنك وعلى الطاهرين من ولدك ورحمة الله وبركاته).

وهناك آثار عظيمة في مسجد الكوفة وفي بعض أسطواناته بالضبط، ففي الأسطوانة السابعة المسماة بمقام آدم عليه السلام أنها مقام وفق الله تعالى فيه آدم للتوبة. وإن صح هذا فالكوفة موطن أول الخليقة البشرية، وقد يدل عليه ما رقم في الأسطوانة آثارياً من الدعاء والذي أوله: بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا إله إلا الله، محمد رسول الله، السلام على أبينا آدم، وأمنا حواء، السلام على هابيل المقتول ظلماً وعدواناً.. السلام على شيث صفوة الله المختار الأمين)[٢].

وباب الفرج يعرف بمقام نوح عليه السلام[٣].

وباب أمير المؤمنين هي مقام نوح عليه السلام[٤].

ولا مانع أن يكون لنوح عدة مقامات في الكوفة ومسجدها، ففيها صنع السفينة، ومنها فار التنور، وبها كان الطوفان العالمي.

وفي رواية أن الأسطوانة السابعة مقام إبراهيم وأن أمير المؤمنين كان يصلي إليها.

وفي رواية معتبرة أن الأسطوانة الخامسة كانت بقعة صلى فيها إبراهيم خليل الرحمن، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام لبعض أصحابه: (صل عند الأسطوانة الخامسة ركعتين فإنها مصلى إبراهيم عليه السلام)[٥].

وفي عمدة الزائر لابن طاووس بالذات:

١- عند الأسطوانة الرابعة، وهي مقام إبراهيم، تقول فيما أزاد بعضهم: سلام على نوح في العالمين.

٢- وعن مولانا أمير المؤمنين أنه قال: أدخل إلى جامع الكوفة من الباب الأعظم فإنه روضة من رياض الجنة[٦].

وقل ما ذكره ابن طاووس في مصباح الزائر:

(السلام على سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله وآله الطاهرين، السلام على مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ورحمة الله وبركاته، وعلى مجالسه ومشاهده، ومقام حكمته، وآثار آبائه: آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل)[٧].

وهنا تصرح الزيارة بآثار آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل، وآدم أبو البشر، ونوح أبوهم الثاني، ومقره النجف وعمله في الكوفة، وإبراهيم مقامه في المسجد، وإسماعيل نجل إبراهيم، وهو رابع الأنبياء العرب.

(٢) إدريس البابلي:

وهو أول من أعطي النبوة بعد آدم عليه السلام، وكان إدريس أول من خط بالقلم، وأول من نظر في علوم النجوم والحساب، وحكماء اليونانيين يسمونه هرمس الحكيم، وهو عظيم عندهم، وقد أنزلت -فيما قيل- عليه ثلاثون صحيفة، وهو أول من جاهد في سبيل الله، وقطع الثياب وخاطها، وهو وصي أبيه، وقد توفي آدم عليه السلام في عهده، فدعا إدريس قومه ووعظهم، وأمرهم بطاعة الله تعالى ومعصية الشيطان، والابتعاد من ولد قابيل قاتل هابيل فلم يقبلوا منه[٨].

وقد رفع الله إدريس إليه كما في التوراة، وبنص من القرآن ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾[٩].

---

(١) ظ: ابن بطوطة/ رحلة ابن بطوطة ١٠٩/١ جعفر محبوبة/ ماضي النجف/ ١٣.

(٢) ظ: المفاتيح/ ٣٩٠ وانظر مصادره.

(٣) المرجع نفسه/ ٣٩٦.

(٤) ظ: الضياء/ ٥٦٢.

(٥) ظ: المفاتيح/ ٣٩٤.

(٦) ظ: الضياء/ ٥٥٧ وانظر مصادره.

(٧) ظ: ابن طاووس/ مصباح الزائر/ أعمال مسجد الكوفة.

(٨) ظ: ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٣٤/١.

(٩) سورة مريم/ الآية ٥٧.

وقد عد إدريس رابع الرسل السريانيين آدم وشيث ونوح كما في رواية لأبي ذر الغفاري عن النبي ﷺ[1].

والمعروف أن شيث وصي آدم، وبيت إدريس أو مقامه أو كلاهما في زاوية الجنوب الغربي من مسجد سهيل اليوم وهو في الكوفة الغراء، ويقابله مقام إبراهيم عليه السلام في الشمال الغربي من المسجد، فإن لم يكن ذلك موطنه ومسكنه كما علي الاستقراء، فإنه موطن إقامته أو عبادته في الأقل كما تلقى هذا الخلف عن السلف.

ولا مانع أن يكون إدريس كوفياً وطناً وسكنى، لأدلة تأريخية ناصعة، أبرزها أن ملك بيوراسب في عهد إدريس عند المؤرخين، وقد ظهر بيوراسب في أول سنة من ملك طهمورث، فدعا الأول إلى ملة الصابئين، بينما كان طهمورث مطيعاً لله تعالى، قال أبن الكلبي: أول ملوك الأرض من بابل طهمورث، وكان لله مطيعاً، وكان ملكه أربعين سنة، وهو في عهد إدريس عليه السلام[2].

ونتيجة المقارنة بين أقوال المؤرخين يظهر بالضبط أن إدريس عليه السلام:

بابلي كوفي، وهو أول ولد بني آدم نبوة، كما عليه الإجماع وإن شيئاً كان وصياً، وأنه أول من علم الكتابة.

وأما اسم إدريس فهو اسم عربي مشتق من المدارسة، وكثرة الدرس، وهنا لنا أن نتساءل عن صيغة هذا الاسم العربية، فهل يدل هذا على أن المنطقة كانت عربية ما قبل تدوين التاريخ. الله وحده هو العالم.

يقول أحد أعلام المعاصرين: (وأعلم أنه ليس في تلك البقاع -حاضرة الكوفة- مسجد يضاهي مسجد السهلة فضلاً وشرفاً بعد مسجد الكوفة، وهو بيت إدريس عليه السلام وإبراهيم عليه السلام ومنزل الخضر عليه السلام ومسكنه)[3].

فعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام كما هو مرقوم في مسجد السهلة: (أنه -أي المسجد- فيه مناخ الراكب، وبيت إدريس النبي...)[4].

(٣) نوح النبي عليه السلام:

النبي نوح عليه السلام أبو البشر الثاني، فأبوه السابع آدم عليه السلام[5].

وهو أول أولي العزم، سادة الأنبياء، وأصحاب الرسالات العالمية، وقد أرسله الله إلى البشر كافة بكتاب وشريعة، فكتابه أول الكتب السماوية، وشريعته أول الشرائع الإلهية[6].

(١) ظ: ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ٣٤/١.
(٢) ظ: المصدر نفسه ٣٥/١.
(٣) ظ: المفاتيح/ ٤٠٤ وانظر مصادره.
(٤) وسائل الشيعة ٥٣٣/٣.
(٥) ظ: الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٨٧/١.
(٦) ظ: الطباطبائي/ الميزان في تفسير القرآن ٢٥١/١٠.

وتنتهي أنساب البشر إليه بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾[7].

وهو أبو الأنبياء جميعاً عدا آدم وإدريس لأنهما قبله بدليل قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾[8].

وليس بالإمكان تحديد الحقبة الزمنية تأريخياً بين آدم ونوح بالضبط الصحيح، إلا أن بعض الروايات تشير إليها بحدود عشرة قرون، فقد روي عن جماعة من السلف أن بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على ملة الحق، وأن الكفر بالله حدث في القرن الذي بعث فيه نوح، وهو أول نبي بعث بالإنذار والدعاء إلى التوحيد، وهو قول ابن عباس وقتادة[9].

وكان نوح عليه السلام في عهد بيوراسب، وبيوراسب في ملك طهمورث، وطهمورث ملك البابليين، وكان قومه يعبدون الأصنام، فدعاهم نوح إلى الله تسعمائة سنة وخمسين سنة، كلما قضى قرن تبعهم قرن على ملة واحدة من الكفر[10].

وللقرن دلالتان في العد الزمني، فتارة يطلق على الجيل من الناس كما عليه القرآن العظيم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾[11].

وقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾[12].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾[13].

وبعضهم يرى أن القرن مائة سنة، فإن كان المراد بالقرن الجيل من البشر، فبين آدم ونوح عشرة أجيال، وإن كان المراد مائة سنة فبينهما ألف عام.

قال ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ): (وقد اختلف العلماء في ديانة القوم الذين أرسل إليهم نوح عليه السلام، فمنهم من قال أنهم كانوا قد أجمعوا على العمل بما يكره الله تعالى من ركوب الفواحش، والكفر، وشرب الخمور، والاشتغال بالملاهي، عن طاعة الله.

ومنهم من قال: أنهم كانوا أهل طاعته، وبيوراسب أول من أظهر القوم بمذهب الصابئة، وتبعه على ذلك الذين أرسل إليهم نوح. والذي لا شك فيه أنهم أهل أوثان كما نطق به القرآن، وهو مذهب طائفة من الصابئين فإن أصل مذهب الصابئين عبادة الروحانيين، وهم الملائكة لتقربهم إلى الله زلفى، فإنهم اعترفوا بصانع العالم، وأنه قادر حكيم مقدس إلا أنهم قالوا: الواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى معرفة جلال الله،

(٧) سورة الصافات/ الآية ٧٧.
(٨) سورة الصافات/ الآية ٧٨.
(٩) ظ: الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٩٠/١.
(١٠) ظ: المصدر نفسه ٨٧/١ + ابن الأثير/ الكامل ٣٦/١.
(١١) سورة المؤمنون/ الآية ٣.
(١٢) سورة مريم/ الآية ٧٤.
(١٣) سورة الإسراء/ الآية ١٧.

وإنما نتقرب إليه بالوسائط المقربة لديه، وهم الروحانيون، وحيث لم يعاينوا الروحانيين، (وهم الملائكة) تقربوا إليهم بالهياكل، وهي الكواكب السبعة السيارة، لأنها مدبّر العالم عندهم، ثم ذهبت طائفة منهم، وهم أصحاب الأشخاص حيث رأوا أن الهياكل تطلع وتغرب، وترى ليلاً ولا ترى نهاراً، إلى وضع الأصنام لتكون نصب أعينهم ليتوسلوا بها إلى الهياكل، والهياكل إلى الروحانيين، والروحانيين إلى صانع العالم -وهو الله تعالى- فهذا كان أصل وضع الأصنام أولاً[١].

وتواصى قوم نوح بعبادة الأصنام ﴿**وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً**﴾[٢].

وأسماء هذه الأصنام من الأعلام الدالة على مسمياتها في كل الأصوات، وتكتب كما هي لاتينياً في كل اللغات، لأن الأعلام لا تترجم وإنما تبقى كما هي في الغالب، والذي يجلب الانتباه حقاً أن أسماء هذه الأصنام جميعاً أسماء عربية، ولها معانيها في اللغة باعتبارها أسماء عربية، ونأتي عليها لغوياً بحسب تسلسلها في القرآن العظيم:

١- وُد، قال الراغب (ت٥٠٢هـ) في المفردات بالنص:

و(ودّ صنم سمي بذلك إما لمودتهم له، أو لاعتقادهم أن بينه وبين الباري مودّة، تعالى الله عن القبائح)[٣].

ويعني هذا: أن قوم نوح سموا هذا الصنم وداً باللغة العربية لمودتهم له، أو لعقيدتهم أن بينه وبين الباري مودة، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

فما معنى أن يسمي قوم صنماً باسم عربي، له دلالته العربية، وفيه معناه العربي، وهم لا يريدون ذلك، ولا يعرفون العربية!!

٢- سواع: اسم مصدر عربي لا شك في هذا، وقد ورد في اللغة: (وجاءنا بعد سوع وسواع، أي بعد هدوء)[٤].

ولما كان سواع اسم صنم عند قوم نوح، فما المانع أنهم كانوا يقصدونه، ويريحون إليه لحظة الهدوء ليكون اللقاء في خلوة من الصفاء الروحي فيما يزعمون.

٣- يغوث اسم مصدر على صيغة المضارع من الغوث، وقد جاء في معاجيم العربية:

(الغوث يقال في النصرة، والغيث المطر، واستغثته طلبت الغوث أو الغيث. فأغاثني من الغوث، وغاثني من الغيث)[٥].

وما المانع من قوم نوح أن يسموا بهذه الصيغة، طلباً للغوث، فهم يستجيرون به، ويستغيثون عند الشدائد، أو يطالبون به الغيث، فهو شبيه عندهم بإله المطر فيما يزعمون.

٤- يعوق، وهو اسم صنم، وتصريفه: عاق يعوق عوقاً، يقال: عاقه وعوقه وأعتاقه، ومنه عوائق الدهر، قال تعالى: ﴿**قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ**﴾[٦]. أي المثبطين الصارفين عن طرق الخير.

قال الراغب: ويعوق اسم صنم[٧].

فالاسم عربي في مادته واشتقاقه وتصريفه ودلالته، فلعله كان يثبط قوم نوح عن العزم في الأمور لدى الاستقسام في الأزلام، وإن لم يكن كذلك فهو في الأقل: مادة لغوية عربية الأصل.

٥- نسر اسم صنم في قوله تعالى ﴿**نَسْراً**﴾ والنسر طائر، ومصدر نسر الطائر الشيء بمنسره: أي نقره[٨].

والنسر عادة ما يشمخ بأنفه إلى السماء، وما يدرينا، فلعل لهذا المعنى علاقة بتسميته وإلا فهو اسم عربي، ولا ندري انطباق ظروف التسمية عليه.

ومهما يكن من أمر، فلا يخلو المقام بالنسبة لقوم نوح، أما أن يريدوا ذلك من هذه الأسماء في معانيها بلغتهم الأصل، فهم عرب، أو أنهم في الأقل يحسنون العربية ودلالتها وعلى الغرض الأول يتجلى أن الكوفة موطن العرب الأول بعد الخليفة بألف عام على الأكثر، إن لم يكن دون ذلك، إذ لا بد من اللغة من النشوء حتى تترقى إلى مرحلة الاستقرار والتداول. وعلى الفرض الثاني، فإن اللغة العربية قديمة جداً بحيث يحسنها البابليون والسومريون ويسمون الأعلام بمسمياتها، وهو أيضاً أمر جدير بالأهمية، وعلم ذلك كله عند الله تعالى، فإن القرآن الكريم لم يصرح بشيء من هذا، وإن صرح بالأسماء العربية للأصنام، إلا أن الاستنباط العلمي يقتضي ما قدمناه، والله العالم والعاصم.

وهنا نؤكد أمرين:

الأول: أن الإجماع قائم أن نوحاً كان مقره النجف، وعمله في الكوفة، كما عليه جملة من الروايات:

ففي الكافي بإسناده عن المفضل بن عمر، وكان له عند الإمام الصادق عليه السلام في الكوفة أيام قدم على أبي العباس السفاح، وانتهى إلى الكناسة في الكوفة، وذكر صلب عمه زيد حتى انتهى إلى طاق الزياتين، فنزل الإمام الصادق، وقال للمفضل:

(١) ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٣٨/١ وانظر الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ٩٠/١.

(٢) سورة نوح/ الآية ٢٣.

(٣) الراغب/ المفردات/ ٥١٧.

(٤) المصدر نفسه/ ٢٤٩.

(٥) المصدر نفسه/ ٣٦٧.

(٦) سورة الأحزاب/ الآية ١٨.

(٧) الراغب/ المفردات/ ٣٥٤.

(٨) المصدر نفسه/ ٤٩٠.

(انزل فإن هذا الموضع كان مسجد الكوفة الأول الذي كان خطه آدم، وأنا أكره أن أدخله راكباً. قلت: فمن غيّره عن خطته؟

قال: أما أول ذلك فالطوفان في زمن نوح، ثم غيره كسرى والنعمان، ثم غيره بعد زياد، فقلت: وكانت الكوفة ومسجدها في زمن نوح؟

فقال لي: نعم يا مفضل، وكان منزل نوح وقومه في قرية - على منزل من الفرات- مما يلي غرب الكوفة.

قال الإمام: وكان نوحٌ رجلاً نجاراً، فجعله الله عز وجل نبياً وانتجبه، ونوح أول من عمل سفينة تجري على ظهر الماء.. قال: ولبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل، فيهزأون به ويسخرون، فلما رأى ذلك منهم دعا عليهم بما حكاه تعالى: ﴿**وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فاجِراً كَفَّاراً**﴾[1].

فأوحى الله عز وجل إلى نوح أن اصنع السفينة وأوسعها وعجّل عملها، فعمل نوح سفينته في مسجد الكوفة بيده، فأتى بالخشب من بعد حتى فرغ منها...

وأشار الإمام إلى موضع دار، فقال: يا مفضل وههنا نصبت أصنام قوم نوح: يغوث ويعوق ونسر...)[2].

أقول يبدو من هذه الرواية:

أ- قدم مسجد الكوفة، وأن آدم قد اختطه، وأن نوحاً قد أقام فيه، وعمل في وسطه السفينة، وإن تغيرت معالمه، وبعض أماكنه، ومما يؤيده ما رواه أبو رزين الأسدي عن أمير المؤمنين عليه السلام، وهو يتحدث عن نوح عليه السلام وعن قومه، وعن صنعه للسفينة، وهو في الكوفة قائلاً: وكان نجره في وسط مسجدكم، ولقد نقص عن ذرعه سبعمائة ذراع[3].

ب- قول الإمام الصادق عليه السلام وكان منزل نوح وقومه في قرية مما يلي غرب الكوفة، أقول أن المراد في غرب الكوفة فيما يبدو هو النجف الأشرف اليوم.

الأمر الثاني: أن أقدم نص لدينا عن الطوفان العالمي، كان في ملحمة جلجامش يقول فيه، وهو يتحدث عن الطوفان:

وأخبر أحد الآلهة جده (نوح البابلي) بذلك، وتسميه الملحمة (أبو تو نبشتم) وهو ترجمة سومرية للاسم، وطلب منه أن يعمل سفينة، وينجو بنفسه بالقول الآتي:

قوض بيتك وابن سفينة.
واترك ما تملك، وأنقذ حياتك.
وتخل عن أملاكك، وانج بحياتك.
وخذ معك إلى السفينة بذرة كل مخلوق حي.

* * *

أرسل الموكل بالزوبعة مطراً مهلكاً في السماء.
وتطلعت إلى حالة الجو.
فإذا الجو مخيف لا يمكن النظر إليه.

* * *

أتى غيم أسود من الأفق البعيد.
وأرعد (أدد) عنان السماء (أدد: إله الزوبعة والمطر عند السومريين).
وقلب النور إلى ظلمة.
وكسرت الأرض مثل إناء.
وهبت العاصفة يوماً واحداً، هبتً سريعاً.

* * *

عصفت الرياح ستة أيام وست ليال، وانحسرت الأمطار.
وثارت العاصفة، فغطى الطوفان الأرض.
ولما كان اليوم السابع، خفت شدة العاصفة والطوفان.
واستوت السفينة على جبل نصير.
ومسك جبل نصير السفينة ولم يدعها تتحرك[4].

وهنا تبدو عدة ظواهر علمية دقيقة:

١- أن ملحمة كلكامش تتحدث عن سكان العراق في فجر السلالات، وكان نهاية هذه السلالات الفتح الآكدي لسومر المؤرخ بعام (٢٨٠٠) قبل الميلاد، بينما اعتبره آخرون في عام (٢٣٥٠) قبل الميلاد وعندما وحّد سرجون الأكدي بلاد الرافدين بقسميها الشمالي والجنوبي[5].

٢- هناك عصران قد سلطا على العراق القديم: عصر ما قبل السلالات وعصر فجر السلالات، وهو المعروف بعصر فجر السلالات السومرية الذي كان بعد الطوفان، كما أن عصر ما قبل الطوفان يسمى بعصر ما قبل السلالات، فالملحمة إذن تؤرخ طوفان نوح، وبذلك تعتبر أقدم نص عن الطوفان قد يقدر بالألف الثالث قبل الميلاد لأنها حبرت وكتبت ونظمت قبل عصر المقبرة الملكية في أور، والتي يعود تاريخها إلى حوالي ٢٦٠٠سنة قبل الميلاد.

٣- إن القرآن العظيم قد أورد قصة الطوفان العالمي بما يوافق ما اشتملت عليه ملحكمة جلجامش في كثير من المقاطع، وهذا ملحظ من ملاحظ إعجاز القرآن الكريم، إذ يتحدث عن الغيب بدقة متناهية، تؤيدها آثار الحفريات السومرية.

---

(١) سورة نوح/ الآيات ٢٦-٢٧.

(٢) ظ: الطباطبائي/ الميزان في تفسير القرآن ٢٤٢/١٠.

(٣) ظ: الطباطبائي/ الميزان في تفسير القرآن ٢٤٢/١٠.

(٤) ملحمة كلكامش/ ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس (مجلة سومر/ ج٦/ عدد٢/ ١٥٤-١٦٣).

(٥) ظ: ستيون لويد/ موجز تأريخ العراق منذ أقدم العصور حتى الآن/ ٣٨ ترجمة: طه باقر وبشير فرنسيس/ لندن/ جامعة أكسفورد/ ١٩٤٣ + دليل المتحف العراقي/ ١٧/ لسنة ١٩٦٠م.

أ- في طور صنع السفينة قال تعالى:
﴿فَأَوْحَيْنا إِلَيْه أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَفارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْه الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخاطِبْني في الَّذينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾[١].

ب- في عوالم الطوفان بالأمطار الغزيرة، وتفجير الأرض بالعيون قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماء بِماء مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[٢].
وهنا تلمح القدرة الإلهية الجبارة في فتح أبواب السماء بالماء المنهمر الطاغي، وتفجير الأرض كل الأرض عيوناً فوارة عاتية ليلتقي ماء السماء المتوالي إلى جنب ماء الأرض المتتابع لينقلب الكون إلى محيط عات من الأمواج يصوره الله تعالى بالنسبة للسفينة ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ في مَوْجٍ كَالْجِبالِ﴾[٣].
وذلك تنفيذاً للأمر الرباني المقدر الجاري على هذا الهول المفزع.

ج- في نجاة نوح ومن معه من المؤمنين. قال تعالى:
﴿فَأَنْجَيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ في الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقينَ﴾[٤].
وقال تعالى مفصلاً للحالة ﴿وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجيبُونَ * وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظيمِ * وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقينَ * وَتَرَكْنا عَلَيْه في الآخَرينَ * سَلامٌ عَلى نُوحٍ في الْعالَمينَ * إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرينَ﴾[٥].

د- في صدور الأمر الفوري في إنهاء عوالم المياه ومظاهر الطوفان، واستواء السفينة قال تعالى: ﴿وَقيلَ يا أَرْضُ ابْلَعي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعي وَغيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمينَ﴾[٦].

٤- إن الملحمة تدور حوادثها حول حياة كلكامش، وكلكامش هذا أحد ملوك سومر الأقدمين، وقد ظهر اسمه في ثبت الملوك السومريين باعتباره الملك الرابع الذي حكم بعد طوفان نوح عليه السلام في مدينة (أورك) وأرك تقوم أطلالها حالياً في المنطقة المعروفة باسم (الوركاء) في جنوب العراق على مسافة ٣٠كيلو متراً شرقي مدينة السماوة (محافظة المثنى حالياً) وعلى بعد ١٢كيلو متراً شمال شرقي ناحية الحضر، وكانت تقع على نهر الفرات، ويرجع تأريخها إلى الألف الرابع قبل الميلاد[٧].

٥- أن هذا الطوفان قد شمل الكرة الأرضية باعتبار أن اليابسة كانت ضمن نطاق محدود يحيط بمنطقة الطوفان، وبتعبير آخر أن الحياة البشرية والأحياء البحرية والمزارع النباتية، والثروة الحيوانية كانت ضمن منطقة الطوفان في العراق، لهذا أمر نوح عليه السلام بحمل زوجية الكائنات البشرية والحيوانية والنباتية في سفينته لئلا تنقطع الحضارة على وجه الكرة الأرضية، ولتعود من جديد إلى الحياة بعد الطوفان الغامر الشامل، وهذا لا يمنع أن تكون بعض المناطق اليابسة منتشرة على سطح الكرة الأرضية، ولكنها غير مأهولة -لزوماً- بالحياة بدليل قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقينَ﴾[٨].
فلا بقاء لسواهم لفناء كل الأشياء. ومن هنا نستنتج أن انطلاق حضارة العالم كان من الكوفة الغراء وأرض الرافدين.

٦- يذهب الدكتور أحمد نسيم سوسه بأنه من المرجح أن سفينة نوح عليه السلام قد استقرت إلى جانب المرتفعات الصحراوية في جور النجف الأشرف، وهي المرتفعات المعروفة باسم (النواويس) والنواويس قد وردت في كلام سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليه السلام بقوله (كأني بأشلائي هذه تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء) وأن النص الوارد في القرآن الكريم ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ وهي كلمة عربية، مما يؤيد أنها رست على مرتفع من صحراء جنوب شرقي الفرات عند حدود سلسلة مرتفعات النجف التي تعلو على سطح البحر بما يقارب (٦٥) متراً[٩].
ويؤيده ما روي عن المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام في ﴿اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ قال: هو فرات الكوفة[١٠].
ومعنى هذا أن البشرية قد تدفقت في الكون من منطقة الكوفة، ومما يؤيده مدفن نوح عليه السلام في النجف، وهو اليوم ضمن ضريح أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام.

(٤) هود وصالح عليهما السلام:

وهود عليه السلام أول عربي أرسل إلى عاد، وذلك بعد نوح وقبل إبراهيم عليهما السلام.

(١) سورة المؤمنون/ الآية ٢٧.
(٢) سورة القمر/ الآيات ١١-١٢.
(٣) سورة هود/ الآية ٤٢.
(٤) سورة الشعراء/ الآيات ١١٩-١٢٠.
(٥) سورة الصافات/ الآيات ٧٥-٨٢.
(٦) سورة هود/ الآية ٤٤.
(٧) ظ: سعد حاتم محمد مرزة/ معجزة القرآن والطوفان/ ٩٤ وانظر مصادره.
(٨) سورة الصافات/ الآية ٧٧.
(٩) ظ: أحمد نسيم سوسه/ فيضانات بغداد، عن مقال: موطن الطوفان واستقرار فلك نوح/ ٨٥-١٩٢/ ١٩٤٦م.
(١٠) العياشي/ تفسيره للآية.

وكانت مساكن عاد ما بين السهول الشرقية لليمن وتسمى بالشحر وبين عمان وحضرموت بالأحقاف[1].

والأحقاف رمال يقال لها رمل عالج، والدهناء، ويبرين ما بين عمان وحضرموت.

وقد نص القرآن العظيم على الاسم بسورة الأحقاف التي سميت باسم ديارهم ومنازلهم، فقال تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾[2].

ويبدو من القرآن العظيم أنهم كانوا في نعمة وخير، ولهم أعمار طويلة وأجسام عظيمة. وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها، وأبرز أصنامهم ثلاثة: ضر، ضمور، الهباء، فأرسل الله هوداً يدعوهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، وخلع الأنداد، وترك ظلم الناس، فكذبوه وآذوه، وقالوا من أشد منا قوة؟ ولم يؤمن إلا قليل[3].

فأصيبوا بعد الإنذار بعذاب الاستئصال بالريح العقيم، سخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً متوالية، فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك، واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حضيرة ما يصيبهم إلا ما تلين عليه الجلود وتلتذ النفوس[4].

قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلاَّ مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ**﴾[5].

قال الطبرسي: وكان هود وصالح وشعيب وإسماعيل ونبينا محمد ﷺ يتكلمون بالعربية[6].

ويستخلص مما تقدم أن النبي هود عربي بدلالة صيغة اسمه العربية، وقومه العرب، ومنطقته العربية، وأسماء الأصنام التي عبدت من دون الله عربية أيضاً.

وأن هذا الجيل القديم من العرب يسمى عاداً الأولى.

قال تعالى ﴿**وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الأُولى * وَثَمُودَ فَما أَبْقى**﴾[7].

وأما ثمود فهم الجيل الثاني من العرب بعد عاد الأولى، وكانت مساكنهم من البلاد العربية في الحجر، وهو بين الحجاز والشام، وقد كثروا بعد عاد، واستخلفوا في الأرض، وكانوا في سعة من معايشهم، فكفروا بالله وأنعمه، فبعث الله إليهم نبيه صالحاً عليه السلام[8].

قال تعالى: ﴿**وَإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ**﴾[9].

وكانت ثمود تعبد الأصنام، وتعمر طويلاً، وتتخذ من الجبال بيوتاً، كما جاء في القرآن الكريم ﴿**وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ**﴾[10].

وذكرهم القرآن بمواطنهم ومساكنهم وإرسال الرسل إليهم، وعاقبة أمرهم. قال تعالى:

﴿**وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ * وَكانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ**﴾[11].

وكانوا عكفاً على أصنامهم، فدعاهم صالح إلى عبادة الله وحده، ونبذ الوثنية فقابلوه بما قصه الله تعالى من أمرهم:

﴿**قالُوا يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوّاً قَبْلَ هذا أَتَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا وَإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ**﴾[12].

ويبدو أنهم قد طلبوا إليه المعجزة، بإخراج ناقة جوفاء عشراء من صخرة بعينها، فأتى الصخرة وصلى ودعا ربه، فإذا بها تتمخض وتخرج من وسطها الناقة وهم ينظرون، فكانت آية كما تحدث القرآن ﴿**وَيا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ قَرِيبٌ**﴾[13].

ويبدو أنهم تواصوا على عقرها، فأخذهم عذاب الاستئصال كما قال تعالى ﴿**فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي داركُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ**﴾[14].

---

(١) ظ: ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٤٨/١.
(٢) سورة الأحقاف/ الآية ٢١.
(٣) ظ: ابن الأثير/ الكامل ٤٨/١.
(٤) ظ: الطبرسي/ مجمع البيان ٤٣٩/٢.
(٥) سورة الأحقاف/ الآيات ٢٤-٢٥.
(٦) الطبرسي/ مجمع البيان ٤٣٩/٢.
(٧) سورة النجم/ الآيات ٥٠-٥١.
(٨) ظ: ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٥٠/١.
(٩) سورة هود/ الآية ٦١.
(١٠) سورة الشعراء/ الآية ١٤٩.
(١١) سورة الحجر/ الآيات ٨٠-٨٣.
(١٢) سورة هود/ الآية ٦٣.
(١٣) سورة هود/ الآية ٦٤.
(١٤) سورة هود/ الآيات ٦٥-٦٨.

وبعد عذاب الاستئصال نجى الله صالحاً والذين آمنوا برحمة منه.

والذي يثير الانتباه حقاً بعد استئصال عاد وثمود هو تواتر وجود ضريح هود وصالح في ظهر الكوفة بطريق الاستقراء العلمي منذ عصر الأئمة عليهم السلام وعهود الصحابة والتابعين والذين من بعدهم وحتى اليوم فقد ورد في وصية أمير المؤمنين عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام قال: (وادفنوني في قبر أخي هود)[١].

وفي رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: (وإذا مت فادفنوني في هذا الظهر في قبر أخوي هود وصالح)[٢]، وهما الآن في ضريح ذي قبتين تستقبلان وادي السلام، ويبتعدان عن ضريح الإمام علي عليه السلام حوالي ثلاثمائة متر فحسب، في بناء شامخ يقصد ويزار، وكان آخر تجديدهما على يد السيد بحر العلوم قدس سره (ت:١٢١٢هـ) وما يدرينا أن هوداً وصالحا، قد هجر كل بلده وموطنه الأصلي، بعد استئصال قومه، واستوطنا منطقة عربية، وهي ظهر الكوفة حتى أتاهما الأجل، ودفنا في واديها المقدس، أو لخصوصية أخرى، كون الكوفة أرض الرسالات السماوية ومهبط الوحي على من سبقهم من الرسل. والله هو العالم.

(٥) إبراهيم الخليل عليه السلام:

وهو الثاني من الأنبياء أولي العزم، وكان مولد إبراهيم عليه السلام ببابل من أرض السواد وقال بعضهم ومولده بالسواد بناحية كوثي[٣].

وكوثي أو كوثى إحدى قرى الكوفة[٤].

وكان مولده في عهد نمرود بن كوش بن كنعان وملكه في كوثي[٥].

وعن هشام بن محمد، قال: بلغنا -والله أعلم- أن إبراهيم خليل الرحمن ولد في زمان نمرود، وأنه صاحبه الذي أراد إحراقه[٦].

وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يقول: إن إبراهيم كان مولده بكوثار، وضبطها الجزري كوثى، قرية من أعمال الكوفة[٧].

وهذا أحد القولين عند أبي الفداء بن كثير[٨].

وكذلك هو عند ابن الأثير[٩].

وجاء في مراصد الاطلاع: وكوثى بالعراق في موضعين:

كوثى الطريق وكوثى ربا، وبها مشهد إبراهيم الخليل عليه السلام، وهما قريبان، وبينهما تلول رماد، ويقال أنها رماد النار التي أوقدها نمرود لإحراقه[١٠].

ومهما يكن من أمر فإن إبراهيم قد ولد في بابل أو الكوفة أو إحدى قرى الكوفة، والدلائل على ذلك كثيرة سيتحدث عنها البحث. وفؤجئ إبراهيم في هذه المنطقة بقومه من البابليين أن عبادتهم على نوعين من الوثنية والإشراك، فقليل من قومه يعبد الأصنام، والقليل الآخر يعبد الكواكب وقد يتداخل الأمران في عبادة التماثيل التي تحكي صورة الكواكب كالزهرة والقمر والشمس فيعبدونها، ويشركون بالله سواه.

وقد حاجج إبراهيم هؤلاء وهؤلاء مستدلاً على بطلان عبادتهم، وسخر بهما جميعاً، ودعا إلى التوحيد، وقد جاء ذكر ذلك في صور أسلوبية متعددة في القرآن العظيم، نشير إلى أبرزها.

قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ * وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾[١١].

فهو يستنكر على آزر وقومه عبادته للأصنام، إلا أن آزر بقي مصراً على ذلك وألح عليه إبراهيم وعاود عليه القول، فأبى آزر الإيمان وبقي على إشراكه، وأوعد إبراهيم بالرجم، وطلب مهاجرته طويلاً، قال تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا * إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً * يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا * يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا * يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا * قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا**﴾[١٢].

فقد حاجج إبراهيم أباه هنا حجاجاً مفصلاً فيه من اللين والأدب والإنذار الشيء الكثير، فهو يوقر أباه في الخطاب، ويدعوه إلى نبذ عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه

(١) الحر العاملي/ الوسائل ٣٠٩/١٠.
(٢) الطوسي/ التهذيب ١٢/٢ + الوسائل ٣٠٨/١٠ + ابن طاووس/ فرحة الغري/ ٢٨.
(٣) ظ: الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ١١٩/١.
(٤) ظ: مراصد الاطلاع/ مادة: كوثي.
(٥) ظ: الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ١١٩/١.
(٦) ظ: الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ١١٩/١.
(٧) ظ: الطباطبائي/ الميزان في تفسير القرآن ٢٢٩/٧.
(٨) ابن كثير/ قصص الأنبياء/ ١٨٨.
(٩) ظ: ابن الأثير/ الكامل في التأريخ ٥٣/١.
(١٠) ظ: مراصد الاطلاع/ مادة: كوثي.
(١١) سورة الأنعام/ الآيات ٧٤-٧٥.
(١٢) سورة مريم/ الآيات ٤١-٤٧.

شيئاً وهو يخبره بأن جاءه من العلم ما لم يأته، ويطلب إليه اتباعه ويحذره عبادة الشيطان لأنه عصى الرحمن، وهو يخاف عليه من عذاب الله بموالاته للشيطان، أو يمسه هذا العذاب فيكون ولياً للشيطان فيرد عليه أبوه بزجر وتهديد ومقاطعة، فيقابل أباه بأن لا خطر عليه منه وأنه سيستغفر له الله تعالى.

وكما حاج أباه وقومه في عبادة الأصنام، فقد حاجج قومه أيضاً بعبادة الكواكب، وقد أراه الله عز وجل ملكوت السماوات والأرض، واستيقن ذلك بنفسه، وبذلك يكون قد استلهم دلالة توحيد الله تعالى بدلالة خلقه البديع في المشاهد المتعددة لهما.

وكان نظر إبراهيم عليه السلام في ملكوت السماوات والأرض نظر من يهتدي إلى التوحيد حتماً، لأن تدبره في ذلك يقضي بتوجه نفسه لله وحده لا شريك له، إذ مدبر هذا الكون باللازم لا يقبل إلا الوحدانية، فليس لغيره تعالى تدبير هذا الكون، وليس للمحدثات كالكواكب والشمس والقمر باعتبارها تتغير وتتحول وتغيب وتطلع وتأفل، وهكذا أية صفة للخلق لأنها مخلوقة حادثة يعود أمر جريانها وتدبيرها وتقديرها لله وحده.

قال الإمام الباقر عليه السلام: (كشط الله له عن الأرضين حتى رآهن وما تحتهن، وعن السماوات حتى رآهن وما فيهن من الملائكة وحملة العرش)[1].

فرؤية إبراهيم لهذا الملكوت رؤية إضافة خلقها وإبداعها وتنظيمها وإدارة شؤونها إلى الله عز وجل، وانتساب كل الأشياء في هذا المضمار إلى الله تعالى أمر كما قال الطباطبائي: (لا يقبل الشركة، ويختص به سبحانه وحده، فالربوبية التي هي الملك والتدبير لا تقبل تفويضاً ولا تمليكاً انتقالياً)[2].

لهذا فإنه أقام الدليل على بطلان عبادة الكواكب لحدوثها، والخالق لا يكون محدثاً، ولتغير أحوالها في نفي الاستقرار وعدم الثبات، وذلك من صفات المخلوقين، قال تعالى حاكياً عن الحالة لديه:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3].

فإبراهيم عليه السلام رأى الكوكب ورأى القمر ورأى الشمس فتأكد أنها محدثات تأفل وتتقلب فقطع بخلقها، والمخلوق لا يكون خالقاً، فتوجّه بوجهه لله رب العالمين حنيفاً مسلماً موحداً.

وكان هذا كله لأنه أري ملكوت السماوات والأرض، فتفرع على هذا الأصل نظره إلى الكوكب والقمر والشمس فرآها مخلوقة مسيرة.

ويبدو أن إبراهيم حينما تحرر من السرب فؤجئ برؤية أحد الكواكب السبعة، وهو الزهرة في روايات أهل البيت، وهو الذي يؤيده الاعتبار العلمي، لأن الزهرة يضيق مدارها فلا تبتعد عن الشمس إلا قليلاً، فهي كالتابعة لها، وسواها لا يرى إلا قليلاً أو شاذاً أو قد لا يرى كالمريخ وزحل والمشتري وعطارد، فلم يبق إلا الزهرة وهي قد تتقدم الشمس فتسمى عند الناس نجمة الصبح، وقد تتصاقب عند طلوع القمر في النصف الثاني من الشهر، وهذه الخصوصية للزهرة من بين الكواكب السبعة بحسب نظامها وسيرها، على أنه الزهرة أجمل الكواكب الدرية وأبهجها وأضوؤها وهي تجلب النظر إليها عند الظلام الحالك. والقمر والشمس مذكوران بعدها.

وعلى هذا فقد رأى الزهرة وقومه يتنسكون بواجب عبادتها من خضوع وصلاة وقربان، فلما أفلت رأى القمر بازغاً، فلما أفل بزغت الشمس فلما أفلت، تبرأ من الجميع ومما يعبد قومه.

وقول إبراهيم في الكواكب هذه (هذا ربي) ليس من القطع والبناء، وإنما هو افتراض أمر للنظر في الآثار التي تثبته وتؤيده في حالتي الترقب والانتظار، فكأنه قد عد نفسه كأحد أبناء قومه مجاراة لهم، ليبطل بذلك دعواهم ويثبت فسادها[4].

وهذا حق لأنه كان على يقين من أمره، فقد جاءه من العلم ما يؤكد توحيده الخالص بإراءة ملكوت السماوات والأرض، لذلك فقد أبطل ربوبية هذه الكواكب إما لأفولها أو لعدم حبها، أو هما معاً، لأن ربوبية الله تعالى إنما تتجلى بالحب الإلهي من قبل العباد.

وهناك مؤشر بارز في حياة إبراهيم تتجلى فيه البطولة والشهامة وتتراءى فيه القوة والشجاعة، كما يتمثل به الإيمان المطلق والتوكل على الله، ذلك هو تحطيم أصنام القوم، وهو ليس أمراً اعتيادياً، ولا حادثة هامشية، بل هو في الصميم من اعتقاد القوم، ولك أن تتصور رجلاً بمفرده لا ناصر له ولا مؤازر، يقاتل شعباً بأكمله في أعز شيء لديه، وهو العبادة أنى كان جنسها، فقد خرج قوم إبراهيم لعيد لهم خارج البلد، وتخلف إبراهيم عنهم، فراغ إليهم ضرباً باليمين فجعلها جذاذاً إلا كبيرهم، قال تعالى عن لسانه:

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى

(١) الطبرسي/ مجمع البيان ٣٢٢/٣.
(٢) الطباطبائي/ الميزان ١٧١/٧.
(٣) سورة الأنعام/ الآيات ٧٦-٧٩.
(٤) ظ: الطباطبائي/ الميزان/ ١٧٣ وما بعدها باختصار وتصرف.

يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهيمُ * قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهيمُ * قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ * قالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ * قالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ * قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ * وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْناهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ﴾[1].

فهو قد هجم على الأصنام وجعلها جذاذاً، وهم يستنكرون ذلك، ويلقون بالتبعة على إبراهيم، هم يأتون به على أعين الناس لعلهم يشهدون، ويستفهمون عن الحدث، فيعرض لهم بأن كبيرهم فعل ذلك وطلب سؤاله واستنطاقه، واعترفوا بظلمهم ونكسوا على رؤوسهم لأن أصنامهم لا تنطق، فاحتج عليهم مستنكراً ومستهجناً عبادة ما لا ينفع ولا يضر؛ وتأفف منهم ومما يعبدون، وذهبوا لإحراقه ونصرة آلهتهم، فكانت النار برداً وسلاماً عليه، ونجاه الله ولوطاً إلى الأرض المقدسة.

وتحدثت سورة الصافات عن هذا الحدث في مشهد مقارب فيه تفصيل آخر، فقال تعالى فيما اقتص عن إبراهيم:

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ * ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ * فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قالَ أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ * وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ * قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الأَسْفَلِينَ * وَقالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[2].

ونقف عند هذا النص القرآني وهو على ظواهر عدة:

الأولى: أن حديثه بأنه سقيم على صلة بنظره في النجوم، وربما كان ذلك من قبيل تعيين الوقت الذي يعاوده فيه مرض ما، فاعتل لذلك تعبيراً عن عدم استطاعته الخروج مع قومه إلى عيدهم، أو أنه على سبيل التعريض فإنه حينما ينظر في النجوم فإنما يتفكر في قدرة الله وبديع صنعه نظرة الموحد لا نظرة المنجمين الذين يربطون علل الأشياء ومستقبلها بالكواكب، وربما قيل إن إبراهيم قد وصف نفسه بالقسم مستقبلاً فكل امرئ يمرض والله العالم.

الثانية: إن إبراهيم قد أسرع إلى آلهتهم المزعومة، وكانوا يضعون لها طعاماً، فكلمها بأكله مع علمه بأنها جماد لا يأكل، وحجر لا ينطق، فخاطبها مخاطبة من يعقل ليؤاخذها مؤاخذة العقلاء، رداً على زعم من يرجع إليها في التدبير، وإدارة شؤون الكون.

الثالثة: أنه مال على آلهتهم بحركة سريعة، وعزم ثابت، ضرباً باليمين، سواء أكان اليمين اليد اليمنى أم كان القوة الضاربة.

الرابعة: أن قوم إبراهيم قد أسرعوا إليه يزفون بعد رجوعهم من عيدهم مستنكرين عليه، إلا أنه بعد قبضهم عليه كان هو المستنكر عياناً، فحاججهم استفهاماً وإنكاراً أنهم يعبدون ما ينحتون، والخالق يخلق ولا يُخلق، فسفه عبادتهم الواهنة، واستعلى عليهم بأن الله قد خلقهم وما يعبدون، توبيخاً لهم على ما أحدثوه من البدع والأضاليل.

الخامسة: تصميم قومه على الانتصار لأصنامهم، والانتقام من إبراهيم، وذلك بالإحراق بالنار، فرد الله كيدهم في نحورهم وجعلهم الأسفلين، وكتب نصره لإبراهيم بجعل النار برداً وسلاماً عليه.

السادسة: ختمت الآيات بالحديث عن هجرة إبراهيم إلى الأرض المقدسة. ويبدو من القرآن العظيم أن إبراهيم حينما نجاه الله من النار، قد استدعى من قبل نمرود ليحاج إبراهيم في ربه. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قالَ إِبْراهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[3].

وقد كان على الذي أعطاه الله الملك -إن كان الضمير يعود على نمرود- أن يشكر الله على مننه وفضله، لا أن يحاج إبراهيم في ربه. وكانت حجة إبراهيم أن بدهه أن ربه يحيي ويميت، ويريد بذلك أن الله تعالى قد أوجد الموت والحياة وخلقهما وأبدعهما على حد قوله تعالى:

﴿تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[4].

ولكن نمرود غالطه في خط المحاججة، فقال: أنا أحيي وأميت، فانتقل بالموت والحياة من أصلها في الإيجاد والإبداع، إلى معنى آخر لا علاقة له بالمحاججة تمويهاً على الحاضرين إذ أمر كما في الروايات أن يحضر له اثنان ممن يستحق القتل، فقتل أحدهما، وأطلق الثاني، وادعى أنه يحيي ويميت.

(١) سورة الأنبياء/ الآيات ٥٧-٧١.

(٢) سورة الصافات/ الآيات ٨٨-٩٩.

(٣) سورة البقرة/ الآية ٢٥٨.

(٤) سورة الملك/ الآيات ١-٢.

ويبدو أن المناخ الاجتماعي في مجلس الملك لم يكن ليساعد إبراهيم على الإدلاء بحجته هذه حسبما أراد، أو أنه وجد الحاضرين في المجلس قد انطلت عليهم هذه الدعوى من الملك، أو أنهم لم يكونوا بالمستوى المطلوب لحجاج عقلي منطقي يستدعي التفكير والنظر، والتفريق بينما هو حقيقي وبين ما هو مجازي، أو أنه أراد حجة لا جدال فيها ولا رد فيخصم الملك باختصار الطريق بين يديه، وكسب قصب السبق دون مراء فقال إبراهيم ﴿**فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ**﴾ إذ لا يستطيع الملك ولا من بمجلسه أن يدفعوا هذه الحجة لأنها غير قابلة للنقاش، فألقم حجرا، وانتصر إبراهيم والله لا يهدي القوم الظالمين.

ويبدو من خلال هذه المحاججة أن نمرود كان يعد نفسه بمصاف الآلهة، بل هو الإله لا سواه، وأنه رب إبراهيم ورب الحاضرين، لأن إبراهيم قال ﴿**رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾ فقال الملك على الفور ﴿**أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾ دون العطف كأن يقول (وأنا أحيي وأميت) لأن مقتضى العطف هنا أن يشارك الله في الربوبية، وهو يذهب إلى أبعد من هذا بإرادة التفرد بالربوبية كما قال فرعون بما حكاه الله تعالى ﴿**وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي**﴾[1].

وكما حكى عنه ﴿**فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلى**﴾[2].

بقي الإشارة إلى ملحظ مهم في قضية إبراهيم مع أبيه آزر في قوله تعالى ﴿**وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ..**﴾[3].

فقد اختلف المفسرون في آزر هذا، فقال قسم منهم أنه أبو الصلبي كما عن الحسن البصري والسدي والضحاك، في حين يجمع المؤرخون أن أباه تارخ. ومنهم من قال إن آزر جد إبراهيم لأمه، أو أنه عمه، لا أبوه ولا جده، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

(لم يزل ينقلني من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات حتى أخرجني في عالمكم هذا لم يدنسني بدنس الجاهلية)[4].

فلو كان في آبائه مشرك -والعياذ بالله- لم يوصف أحد منهم بالطهارة لأن القرآن يقول:

﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ..**﴾[5].

ويؤيده ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام متحدثاً عن مهنة آزر، قال:

(كان آزر عم إبراهيم منجماً لنمرود كان لا يصدر إلا عن رأيه)[6].

والذي يدل عليه القرآن العظيم أن (آزر) لم يكن والده الصلبي، فحينما زجر آزر إبراهيم على دعوته له لنبذ عبادة الأصنام ﴿**قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا**﴾[7].

فقد سلم عليه بما يقتضي منتهى الأدب، ووعده بالاستغفار رغبة في إيمانه ونبذه للأصنام، وتوحيده الله تعالى، وقد وفى إبراهيم بهذا الوعد، فدعا له، قال تعالى حاكياً: ﴿**وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ**﴾[8].

وكان هذا الاستغفار عن موعدة سابقة، فلما تبين لإبراهيم كفره وعداؤه لله تعالى، تبرأ منه، بما حكاه الله تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿**وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**﴾[9].

وهذه الأحداث جرت لإبراهيم عليه السلام وهو في سواد بابل أو الكوفة الغراء، أيام الدعوة إلى التوحيد، وتسفيه عبادة الكواكب والأصنام، وهو بعد لم يهاجر إلى الأرض المقدسة، ثم هاجر إلى الشام ومصر، وقد رزق الذرية استجابة لدعائه ﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ**﴾[10].

وسافر إلى مكة المكرمة قبل تمصيرها، وأنزل بها من ذريته بواد غير ذي زرع، وبنيت الكعبة في البيت الحرام، وتأهلت المنطقة بالسكان، وكل ذلك يستدعي الكثير من السنين وفي نهاية كل هذا المطاف العريض قال بما اقتص خبره القرآن الكريم: ﴿**الْحَمْدُ لله الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ**﴾[11].

والدعاء في الآية الأخيرة دليل قاطع على أن آزر ليس أباه الصلبي الحقيقي، لأنه تبرأ سابقاً من آزر، وتدل أن أباه الصلبي هو والده الحقيقي، وإنما أطلق على آزر لفظ الأب لاستعمال القرآن والعرب ذلك في العم والجد، قال تعالى: ﴿**أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِلهاً واحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾[12].

فإبراهيم جد يعقوب وإسماعيل عم يعقوب وقد سمّى القرآن كلاً منهما أباً، وجمع إليهم أباه الحقيقي وهو إسحاق.

---

(١) سورة القصص/ الآية ٣٨.
(٢) سورة النازعات/ الآية ٢٤.
(٣) سورة الأنعام/ الآية ٧٤.
(٤) ظ: الطبرسي/ مجمع البيان ٣٢٢/٢.
(٥) سورة التوبة/ الآية ٢٨.
(٦) ظ: الطباطبائي/ الميزان في تفسير القرآن ٢٠٧/٧.
(٧) سورة مريم/ الآية ٤٧.
(٨) سورة الشعراء/ الآية ٨٦.
(٩) سورة التوبة/ الآية ١١٤.
(١٠) سورة الصافات/ الآيات ١٠٠-١٠١.
(١١) سورة إبراهيم/ الآيات ٣٩-٤١.
(١٢) سورة البقرة/ الآية ١٣٣.

إذن: آزر ليس الأب الحقيقي لإبراهيم بدليل دعائه لوالده الحقيقي في أخريات أيامه، وكان قد تبرأ من آزر، فكيف يدعو له.

وقد أجمع المؤرخون أن أباه تارخ أو تارح بالخاء المعجمة أو الحاء المهملة[١].

وهاجر إبراهيم إلى الأرض المقدسة مع من آمن معه، وفي طليعتهم زوجته ولوط عليه السلام، قال تعالى:

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢].

وقال تعالى: **﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾**[٣].

والذي يدل عليه السياق القرآني من حياة إبراهيم في سواد الكوفة وأرض بابل: أنه عاش في بدء حياته الأولى بمناخ منعزل عن حياة قومه الاجتماعية، كأن يكون في مغارة أو سرب أو نفق، حذراً عليه من القتل من قبل نمرود، فلما فارق ذلك واصطدم بالحياة العامة، بدأ بالدعوة إلى التوحيد مبتدئاً بآزر الذي وجده يعبد الأصنام، فحاججه فيها وألزمه الحجة، ثم حاج قومه فيها، وأنكر عليهم عبادة ما لا يضر ولا ينفع، ثم كسر أصنامهم، ثم عاين استنادهم لعبادة مماثلة للكواكب، والقمر، والشمس، فافترض ربوبيتها معرّضاً من أجل تفنيد الدعوى، فأسقطها جميعاً، وتوجه بوجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً، فلا رب سواه، ولا معبود إلاه، وأمده الله تعالى بإراءته ملكوت السماوات والأرض، فعرف البدء والتكوين والمعاد، وانتقم منه قومه فأججت له النار العظيمة، فنجاه الله منها بمعجزة تثير الدهشة، وحاجه نمرود في ربه، فأفلجه إبراهيم، ولم يستجب له إلا أقل من القليل، فهاجر بهم إلى الأرض التي باركها الله للعالمين، وهكذا يتجلى لدى المقارنة في البحث أن إبراهيم وذريته كوفيون بابليون عراقيون، وأن من هاجر معه من المؤمنين برسالته السماوية كذلك، ومن قبله آدم وإدريس وذريتهما، ونوح وذريته وهم الباقون بعد الطوفان العالمين وبذلك تتلخص بعد النتائج الحتمية:

١- أن الكوفة الغراء، وبابل الفيحاء، هما الأصل الأول في تكوين البشر وانتشاره في العالم من خلال هذه البقعة المباركة.

٢- أن اللغة العربية الشريفة قد انطلقت بأصالتها الكبرى من هذه الديار الشريفة.

٣- أن الرسالات السماوية العالمية لكل من إدريس ونوح وإبراهيم كان مقرها أرض السواد من العراق، وفي الكوفة بالذات كما تضافرت الروايات بذلك.

٤- إن الحضارة العالمية قد بدأت من هنا بأبي البشر الثاني نوح عليه السلام، وقد قام المؤمنون وذريته من بعده بإرساء قواعد التحضر في مظاهر عديدة، وآثار لا تقبل الشك من هاهنا أبرزها ما أبقاه السومريون والبابليون والأكاديون والآشوريون والعرب القدامى.

٥- إن هذه البقعة فيما يروى ويؤكد بالاستقراء أرض مباركة من قبل رب العالمين، لاسيما وهي تحتضن جثمان آدم ونوح وهود وصالح وذي الكفل وأخيراً تشرفت بجثمان أمير المؤمنين، وسيد الوصيين مولانا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ثم كان وادي السلام مجتمع أرواح المؤمنين وكان الدفن بهذه البقعة منجياً من عذاب البرزخ، كما تدل على ذلك الروايات المعتبرة التي لا تحصى كثرة.

بعد هذا الجزء من النتائج تقلبت الظروف في العالم، وبدأت الحروب في أقطار الدنيا، والكوفة تضمحل وتتجدد، ونورها يخبو ويتألق، والحضارة من حولها في الحيرة، والملوك قربها في المناذرة، والخورنق والسدير في ظلالها قرب الذكوات، حتى عادت حاضرة للجيش الإسلامي سنة تمصيرها في الإسلام عام ١٧من الهجرة، فقطنها العرب، وقسمت أرضها إلى أسباع في نظام قبلي يسكنه أتباع العشائر والقبائل متقاربين متجاورين، ثم حول ذلك إلى أرباع، وكل ربع من الكوفة يضم منتجعاً من القبائل العربية في لحمتها ورشائجها إلى أن عادت أحد العراقين مع البصرة.

(٦) الكوفة عاصمة الخلافة الإسلامية:

وقد اكتسبت الكوفة الشرف الشامخ حينما اتخذها أمير المؤمنين عليه السلام عاصمة للخلافة الإسلامية في الثاني عشر من رجب سنة ستة وثلاثين من الهجرة[٤].

ويوافق ذلك الرابع من كانون الثاني عام:٦٥٨ من الميلاد. وهو التأريخ الذي تبركت به جامعة الكوفة فجعلته يومها المتجدد في كل عام فكان ذلك مدعاة تقدير، ومثار إعجاب في الدوائر العلمية.

ولاختيار أمير المؤمنين عليه السلام الكوفة مقراً للخلافة والإمامة أسباب تراثية وإيمانية وعسكرية وسياسية، لعل منها ما نعتقده:

١- كون الكوفة مقراً لرسالات سماوية سابقة، ومهبطاً لجملة من الأنبياء العالميين، وأثراً من آثار توحيد الله تعالى.

٢- كانت الدولة الإسلامية مترامية الأطراف في مشرقها ومغربها، وكانت الكوفة مركزاً وسطياً لتلك الدولة دون شك، فمشرق الدولة الإسلامية يتعدى إلى حدود أفغانستان وباكستان ويتاخم الصين، ومغرب الدولة الإسلامية يشمل الشام ومصر

(١) ظ: الطبري/ تأريخ الأمم والملوك ١١٩/١ + الكامل في التأريخ ٥٣/١.
(٢) سورة العنكبوت/ الآية ٢٦.
(٣) سورة الأنبياء/ الآية ٧١.
(٤) ظ: المسعودي/ مروج الذهب ٣٧٢/٢.

وما والاهما، وجنوب الدولة يحتضن الحجاز واليمن، فلم يبق إلا الكوفة دارة تجتمع حولها هذه الأقاليم المتباعدة.

٣- كان أمير المؤمنين بعد العدة يعد معركة الجمل استعداداً لمعركة صفين، وصفين تقع فعلاً ضمن محافظة دير الزور من الأراضي السورية، فهي إذن على مقربة من أعماله وكوره في الأنبار وهيت إذاً استقرت في الكوفة، فله المدد وله العدد لاسيما أن الكوفة مربض أنصاره وأصحابه وأوليائه من العرب تمده بالرجال والسلاح والنصرة.

٤- أما كون الإمام علي عليه السلام قد أراد أن يبتعد بالمدينة المنورة عن الحروب والفتن فلا أصل له، فقبله رسول الله صلى الله عليه وآله قد قاد حوالي ثمانين معركة وغزوة وسرية من المدينة المنورة، فهلا ابتعد بها عن هذه الحروب؟

ومهما يكن من أمر فقد توسطت الكوفة الدولة الإسلامية، وانطلق منها الإشعاع الإيماني والفكري في عهد الإمام علي عليه السلام ليشمل الجزيرة العربية والحواضر الإسلامية، واحتضنت (بيت المال) للمسلمين، ليصرف في عدالة صارمة، وسواسية حقة بين الناس على سواء، وليموّن الجيش الإسلامي بما يحتاج إليه من الميرة ورباط الخيل والسلاح، وليستقطب الدولة في ظل ذلك شعاع العدالة الاجتماعية المفقودة، فلا أرستقراطية لقريش على من سواها، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

وعَمُر السواد من خلال سياسة الإمام علي عليه السلام الاقتصادية، فكان الخصب والثمر والغلال والألبان، وكانت الأنعام والأبقار والمواشي، وكان الربيع الذي انتهى بالجوع وشيعه في خلافة ما اكتملت سنواتها الخمس لما تخللها من الحروب والفتن ذلك لإرادته حمل الناس على المحجة البيضاء.

وفوق هذا كله فقد أخذ نفسه بشدة ما بعدها شدة، فلبس ما خشن وأكل ما جشب، وهو القائل: «ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد، فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً، ولا ادخرت من غنائمها وفراً ولا أعددت لبالي ثوبي طمراً، ولا حزت من أرضها شبراً»[١].

وكانت همته نفسه ورياضتها بالأصعب، لتأمن يوم القيامة، قال: «وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق»[٢].

وهو عليه السلام قادر كل القدرة على تخير الأطعمة والأشربة، والتأنق بالرياش والمعاش، ولكنه يجانب هواه، ويريد مواساة الناس، بكل ما يستطيع وهو القائل «ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة - ولعل بالحجاز واليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع- أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى، وأكباد حرى أو أكون كما قال القائل:

وحسبك عاراً أن تبيت ببطنة ... وحولك أكباد تحن إلى القد

أأقنع من نفسي بأن يقال: هذا أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش»[٣].

ثم يخاطب الدنيا خطاب الناقد البصير والزاهد الخبير: «إليك عني يا دنيا، فحبلك على غاربك، قد انسللتُ من مخالبك وأفلتُّ من حبائلك واجتنبت الذهاب في ملاحضك»[٤].

وهذا غيض من فيض هذا الباب المتسع حتى لا يستبد الطغاة بالغنى، ولا يزري بالفقير فقره.

بلى قد أنزلت السماء بركاتها وأخرجت الأرض ثمراتها وكان الكوفيون يرون في أمير المؤمنين بطل الاستقلال السياسي للعراق، وعملاق الفكر الإسلامي في الحياة حتى ذهب شهيد عظمته بمثل هذه الأيام، فانطوى ذلك الحلم الرائع، وأسدل الستار على ذلك الأمر المشرق، وبحق ما وصفه به ضرار بن ضمرة حينما دخل على معاوية فقال له صف لي علياً، فقال:

«كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نوحيه، يعجبه من الطعام ما خشن، ومن اللباس ما قصر وكان والله يجيبنا إذا دعوناه ويعطينا إذا سألناه، وكنا والله -على تقريبه لنا، وقربه منا- لا نكلمه هيبة له، ولا نبتدئه لعظمه في نفوسنا، يبسم عن ثغره كاللؤلؤ المنظوم يعظم أهل الدين، ويرحم المساكين ويطعم في المزغبة، يتيماً ذا مقربة، أو مسكناً ذا متربة، يكسو العريان، وينصر اللهفان، ويستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل وظلمته، وكأني به وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، وهو في محرابه قابض على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين ويقول:

يا دنيا غري غيري، ألي تعرضتِ أم إلي تشوقت؟

هيهات هيهات!! ألا حان حينك، قد أبنتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك عمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك يسير، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق»[٥].

وليكن هذا آخر حديثنا، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) ابن أبي الحديد/ شرح نهج البلاغة ٢٠٥/١٦.

(٢) المصدر نفسه ٢٠٨/١٦.

(٣) المصدر نفسه ٢٨٧/١٦.

(٤) المصدر نفسه ٢٩٢/١٦.

(٥) المسعودي/ مروج الذهب ٤٢١/٢.

المصادر والمراجع

١- خير ما نبدأ به: القرآن الكريم.

٢- ابن الأثير/ أبو الحسن، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ).
الكامل في التاريخ/ تحقيق نخبة من العلماء دار الكتاب العربي/ بيروت ١٩٦٧م.

٣- أحمد نسيم سوسة (الدكتور). فيضانات بغداد/ بغداد/ ١٩٤٦م.

٤- ابن بطوطة/ أبو عبد الله/ محمد بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩).
رحلة ابن بطوطة- تحفة النظار في غرائب الأمصار
طبع المكتبة التجارية لمصطفى محمد/ القاهرة/ د. ث.

٥- جعفر باقر محبوبة. ماضي النجف وحاضرها/ الطبعة الأولى/ مطبعة العرفان/ صيدا/ ١٣٥٣هـ

٦- ابن أبي الحديد/ عز الدين/ عبد الحميد بن هبة الله المدائني (ت٦٥٦هـ).
شرح نهج البلاغة لأمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام.
تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم/ ج١٦/ دار إحياء الكتب العربية/ القاهرة/ ١٩٦٢م.

٧- دليل المتحف العراقي لسنة ١٩٦٠م. بغداد/ ١٩٦١م.

٨- الراغب الأصبهاني/ الحسين بن محمد بن المفضل (ت٥٠٢هـ).
المفردات في غريب القرآن.
تر: محمد سيد كيلاني/ مطبعة مصطفى البابي/ القاهرة ١٩٦١م.

٩- ستوين لويد. موجز تأريخ العراق منذ أقدم العصور حتى الآن.
ترجمة: طه باقر وبشير فرنسيس/ جامعة أكسفورد/ لندن/ ١٩٤٣م.

١٠- سعد حاتم مرزة (المهندس).
معجزة القرآن والطوفان/ مطبعة الحوادث/ بغداد/ ١٩٩٥م.

١١- صفي الدين بن عبد الحق (ت٧٣٩هـ).
مراصد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع/ طبعة بولاق. القاهرة.

١٢- ابن طاووس/ رضي الدين/ علي بن موسى بن جعفر (ت٦٦٤هـ)، مصباح الزائر/ المطبعة الحيدرية/ النجف.

١٣- ابن طاووس/ غياث الدين عبد الكريم بن أحمد بن طاووس (ت٦٩٣هـ).
فرحة الغري/ المطبعة الحيدرية/ النجف الأشرف/ ١٣٧٧هـ

١٤- الطبرسي/ أبو علي/ الفضل بن الحسن (ت٥٤٨هـ).
مجمع البيان في تفسير القرآن/ مطبعة العرفان/ صيدا/ ١٣٣٣هـ

١٥- الطبري/ أبو جعفر/ محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ).
تأريخ الأمم والملوك.
دار القاموس الحديث/ طبعة مصورة/ بيروت/ د. ت.

١٦- الطوسي/ أبو جعفر/ محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ)، تهذيب الأحكام/ طبعة إيران.

١٧- عباس محمد رضا القمي النجفي (ت١٣٥٩هـ).
مفاتيح الجنان/ تعريب: محمد رضا النوري النجفي.
دار الجيل/ بيروت/ د. ت.

١٨- ابن كثير/ أبو الفداء/ إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ).
قصص الأنبياء/ منشورات مكتبة النهضة/ بغداد/ ١٩٨٣م.

١٩- الكليني/ أبو جعفر/ محمد بن يعقوب بن إسحق الرازي البغدادي (ت٣٢٩هـ).
أصول الكافي. دار الكتب الإسلامية/ طهران/ ١٣٧٨هـ

٢٠- الكليني/ أبو جعفر/ نفسه فيما سبق/.
الفروع من الكافي تحقيق الغفاري والأملي/ المطبعة الإسلامية/ طهران/ ١٣٨٨هـ

٢١- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن/ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات/ بيروت/ ١٩٧١م.

٢٢- محمد صالح الجوهرجي، ضياء الصالحين/ مطبعة الآداب/ النجف الأشرف/ ١٣٨٥هـ

٢٣- المسعودي/ أبو الحسن/ علي بن الحسين المسعودي الحلي البغدادي (ت٣٤٦هـ).
مروج الذهب ومعادن الجوهر. دار الأندلس للطباعة والنشر/ بيروت ١٩٦٥م.

٢٤- ملحمة كلكامش/ حوالي ٢٥٠٠ قبل الميلاد، نص شعري سومري/ ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس، مجلة سومر/ ٢/٦/ بغداد.

* * *